الدستور العراقي و'خيارات العرب' السنة الإستراتيجية

02-9-2005

وإذا كانت الأمور لم تكن واضحة منذ البداية ، فالمطلوب الآن ترشيد المقاومة العسكرية والاتفاق على منهجها ورفض الخلط بين المقاومة الشريفة وعمليات الاغتيال والقتل التي تتم بحق المدنيين والدبلوماسيين. وبعبارة أخرى: حماية شرعية المقاومة المسلحة ومصداقيتها. والخيار الإستراتيجي أمام العرب السنة يتمثل في القدرة على الجمع بين الاندماج في العملية السياسية من جديد ومحاولة بناء جسور العلاقة والتحالفات مع القوى العراقية المختلفة والنضال السياسي السلمي الإيجابي من ناحية

بقلم محمد أبو رمان

ثمة ملامح جديدة في توجهات العرب السنة تتمثل بنزوعهم إلى المشاركة في العملية السياسية وتشكيل النظام السياسي العراقي الجديد. أما معارضتهم لبعض المواد في مسودة الدستور فلا تعني رفض العملية السياسية مبدئيا بقدر ما تمثل تحفظات واعتراضات موضوعية على بعض المواد، الأمر الذي يمثل بحد ذاته تحولا في النظر إلى مجمل العمل السياسي وأدواته وشروطه. ولعل مطالبة قيادات سياسية ودينية سنية بإسقاط مسودة الدستور من خلال الاستفتاء العام انعكاس واضح على طبيعة الإدراك السني الجديد بأهمية العودة إلى اللعبة السياسية والمشاركة في بناء التوازنات الداخلية بعد فترة شهدت حالة من المقايضات والصفقات كانت على حساب المصالح الوطنية للعراقيين جميعهم.

السؤال الذي يتبادر إلى الذهن، في هذا السياق، هل عودة السنة المرتقبة إلى الحياة السياسية جاءت متأخرة بعد أن ذهب الجمل بما حمل -كما يقولون-؟ وهل قرارهم بمقاطعة العملية السياسية في ظل الاحتلال الأميركي كان خطأ استراتيجيا يدفعون ثمنه الآن بتمرير مسودة للدستور تتجاهل مطالبهم السياسية وربما الاقتصادية أيضا؟

الإجابة على السؤال السابق ليست من السهولة بمكان؛ ففي ظل الوضع العراقي الملتبس والمعقد بعد سقوط النظام السابق، وخروج النزعات المكبوتة إلى العلن وعودة الصراعات المذهبية والتاريخية بحضور سياسة طائفية لعب عليها الاحتلال الأميركي لتحقيق أهدافه السياسية؛ في ظل هذه الظروف لم تكن المعادلة السياسية العراقية تسمح بخيارات عقلانية موضوعية من كل الأطراف بل كانت الشروط والظروف الملتبسة تفرض الخيارات السياسية على مختلف الطوائف والقوى؛ فالشيعة على سبيل المثال لا يؤيدون أو يرغبون بالسياسة الأميركية في المنطقة والقوى الشيعية المتحالفة مع الولايات المتحدة أقرب إلى طهران من واشنطن، وشخص كالصدر معارض للاحتلال الأميركي بعيد عن طهران ويدعو إلى تشيع سياسي يعيد الثقل إلى النجف في مواجهة قم. إذن المفارقات في عراق ما بعد صدام كبيرة ومعقدة وتتطلب قراءة أعمق من الوقوف عند ما يجري على السطح السياسي.

في البداية ساهم الاحتلال الأميركي نفسه في توفير شروط المقاومة وإبعاد العرب السنة عن المجال السياسي الجديد وتعزيز الصراعات والتناقضات الداخلية. فمنذ الإعداد للغزو عقدت الولايات المتحدة صفقات مع الشيعة والأكراد وعزفت الدعاية الأميركية على لحن الأغلبية الشيعية المضطهدة والأقلية السنية التي تتحكم بمصائر العراقيين، وتمادى الإعلاميون والساسة الأميركيون بمغازلة الشيعة والأكراد وذم السنة وتحميلهم جريرة النظام السابق وجرائمه. وقد جرى تصوير السنة وكأنهم جميعا مشاركون في عملية اغتيال تاريخية لحقوق وحريات الأكراد والشيعة معا. وتعززت هذه المواقف مع دخول القوات الأميركية وانتهاجها سياسة طائفية ضد السنة تمثلت بحل الجيش العراقي واستعداء شيوخ العشائر السنية وضرب الطبقة السنية الوسطى التي تمثل عماد التوازن والاعتدال داخل السنة بل والمجتمع العراقي ككل.

السياسة الأميركية هي التي خلقت منذ البداية شروط نمو المقاومة المسلحة داخل السنة وعززت من توجه السنة لمقاطعة العملية السياسية والتوجه نحو السلاح لمقاومة الاحتلال، ولو كانت الظروف الداخلية في العراق صحية لكان توجه السنة هو الأساس والأصل، لكن المشكلة كانت منذ البداية في تعريف الاحتلال وطبيعة العلاقة الملتبسة بين القوى والطوائف العراقية والتي تداخلت فيها العوامل الدينية والتاريخية والمصالح السياسية ودور القوى الدولية والإقليمية وتضارب مصالحها وتعدد أدواتها وأدوارها، مما جعل من تعريف مقاومة الاحتلال بحد ذاته بحاجة إلى توضيحات وشروحات وجمل طويلة..

لقد لعب الحكم السابق دورا كبيرا في تفتيت العراق وضرب المجتمع المدني ورد الناس إلى التمسك بالانتماءات الأولية كالعرق والطائفة بصورتها السلبية المبنية على التعصب والتقوقع وترجيح مصالح جهوية وفئوية على الانتماءات والمصالح الوطنية العليا، وهي الحالة التي انعكست بوضوح على الموقف من الاحتلال والعملية السياسية الجارية. فالشيعة نظروا إلى زوال النظام السابق كفرصة تاريخية سانحة للخروج من الحالة المأساوية التي كانوا يعيشون فيها، وقرر قادة الشيعة أن مسايرة الاحتلال والانخراط في العملية السياسية هي الطريق السهل المؤدي إلى حكم العراق بذريعة أنهم يمثلون الأغلبية. أما الأكراد فرأوا بالاحتلال مرحلة

وخطوة إلى الأمام نحو تحقيق حلمهم التاريخي بإقامة كردستان وإعادة الاعتبار للقومية الكردية، وطوال العقود السابقة لم يجد الأكراد من المحيط العربي أي تفهم لمشكلاتهم ومطالبهم، ولم تجر أية محاولات للتقارب على الصعيد الرسمي والشعبي بين المحيط العربي والأكراد، ناهيك عن مرور المجازر التي ارتكبها النظام السابق بحق الأكراد على الإعلام العربي مرور الكرام دون أن يرف لنا جبين، ففي ظل ظروف كهذه يمكن أن نفهم — ولا نبرر- التحالف الوثيق بين الأكراد والولايات المتحدة والعلاقة الحميمة التي تربط بعض قياداتهم بإسرائيل!

العرب السنة وجدوا أنفسهم منذ البداية محاصرين بسياسة أميركية تتضمن موقفا سلبيا منهم ومن مؤسسات يشكلون عمادها بذريعة أنها مرتبطة بالنظام السابق، ووجد مئات الآلاف منهم أنفسهم في البيوت بعد انهيار مؤسسات الدولة وحل الجيش العراقي والمؤسسات الوطنية السابقة، في الوقت الذي جرى الترويج فيه من قبل كتاب وباحثين أميركيين لتحالف أميركي- شيعي ليس فقط على المستوى المحلي العراقي، وإنما على المستوى الإقليمي، وترافق ذلك مع دعاية إعلامية تظهر العرب السنة وكأنهم الخاسر الأكبر من انهيار النظام السابق.

ترافقت الشروط السابقة — من ناحية أخرى- مع ازدهار العاطفة الدينية لدى السنة في السنوات الأخيرة، وقد كان الموقف واضحا من الاحتلال الأميركي باختيار مسار المقاومة المسلحة وعدم الانخراط في العملية السياسية في ظل الاحتلال. منهج المقاومة المسلحة من الناحية الوطنية والتاريخية منهج صحيح لا غبار عليه، وهو الأصل لا الاستثناء، لكن هناك جانبين اثنين يجعلان الحالة العراقية مختلفة عن الحالات الأخرى:

الجانب الأول يتمثل بوجود تحد أخطر وأهم من تحدي الاحتلال وهو المعادلة الداخلية العراقية بين الطوائف والإثنيات المتعددة وبالتحديد السنة والشيعة والأكراد، إذ تعرّضت هذه المعادلة وثقافة التعدد والتعايش السلمي خلال عقود البعث إلى تشويه وخلل كبير نتج عنه نزعات عصبية متضاربة، وقد تمكن الأميركيون من استثمار هذه المعادلة غير الصحية لتسهيل الاحتلال ومحاصرة المقاومة المسلحة. وفي مقابل خيار السنة بمواجهة الاحتلال كان هناك تحالف وهدنة بين الشيعة والأكراد والاحتلال ولم تحظ المقاومة العراقية بالإجماع الشعبي المطلوب، بل أصبحت حالة سنية بامتياز، بينما وقفت القوى والطوائف الأخرى سياسيا وأمنيا مع الاحتلال، مما يعني أنّ انتصار المقاومة وخروج الاحتلال لا يمثل انتصارا تاريخيا للشعب العراقي وحريته، وإنما بداية لحرب أهلية أخطر من الاحتلال، من هنا نقول أن تحدي بناء المعادلة العلاقة الجديدة العراقية هو التحدي الأهم والأخطر من مواجهة الاحتلال.

في هذا السياق لا يوجد إمكانية حقيقية لبناء المعادلة الداخلية العراقية الجديدة خارج ديناميكية العملية السياسية التي يشرف عليها الأميركيون، من هنا فإن مشاركة السنة في هذه العملية ضرورة لحماية العراق داخليا وتأصيل تقاليد الحوار السياسي الداخلي لتجنب الخيار الأسوأ.

أما الجانب الثاني فهو أن المقاومة العراقية ارتبكت منذ البداية في تحديد واجهتها السياسية واختلط فيها الحابل بالنابل، ولم تتفق قواها ومكوناتها الرئيسة على ميثاق شرف وتحديد الأدوات والإستراتيجية العسكرية المطلوبة، الأمر الذي يجعل النشاط العسكري في خدمة العمل السياسي.

وإذا كانت الأمور لم تكن واضحة منذ البداية ، فالمطلوب الآن ترشيد المقاومة العسكرية والاتفاق على منهجها ورفض الخلط بين المقاومة الشريفة وعمليات الاغتيال والقتل التي تتم بحق المدنيين والدبلوماسيين. وبعبارة أخرى: حماية شرعية المقاومة المسلحة ومصداقيتها.

والخيار الإستراتيجي أمام العرب السنة يتمثل في القدرة على الجمع بين الاندماج في العملية السياسية من جديد ومحاولة بناء جسور العلاقة والتحالفات مع القوى العراقية المختلفة والنضال السياسي السلمي الإيجابي من ناحية، وصيانة المقاومة العسكرية وترشيدها لخدمة الأهداف السياسية من ناحية أخرى.